العوامل المؤثرة على أساليب المعاملة الوالدية

دار الكتب والوثائق القومية

العوامل المؤثِّرة على أساليب المعاملة الوالدية

أ. إيمان مقلد

لا توجد فى العلاقات الإنسانية - على تنوعها - علاقةٌ بين شخصين كالعلاقة التي بين الأبوين وأبنائهما (ابنٍ أو ابنة) فى نطاق الأسرة، خصوصًا فى السن المبكرة. ومهما يطرأ على الأسرة من تغيرات؛ فلا يُوجَد مكانٌ كالبيت يتعلَّم فيه الصغيرُ الحياة، وتنمو فيه شخصيته. ولا نبالغ إن قلنا: إن علاقة الأُبوة والبِنوة؛ تُشبِه المرآة، التى يرى فيها الأبُ طفولتَه وشبابه؛ بل أمل مستقبله فيما فاتَه. ويرى فيها الصغيرُ مَثَلَه الأعلى، ومنارته الهادية على طريق الحياة.

لكن فى زحمة الحياة وغمرة مشاكلها وأعبائها؛ فقد يَسْلُك الآباءُ الهَدْى نفسَه الذى وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم. كما قد يعكسون شخصية هؤلاء الآباء والأجداد التى انطبعت فى نفوسهم منذ كانوا صغارًا.. كأبنائهم الآن! وذلك رغم وعى بعض الآباء المستنيرين بأن الظروف قد تغيرت، كما أن أغلب الأمهات فى مجتمعاتنا غير مثقفات؛ إن لم يَكُنَّ أمِّيات، تحكم سلوكهن عاداتٌ وتقاليد بعيدة عن قواعد التربية السليمة، وأساليب المعاملة السوية.

وما يتبعه الأبوان من أساليب معاملة مع أبنائهم؛ كالتشجيع، والتثبيط والعقاب، والحماية، وغير ذلك.. يمكن أن تكون كلُّها مظاهر طبيعية إذا بدت بدرجات معقولة. ولكنها قد تصل كلها أو بعضها لدرجةٍ من القوة؛ بحيث تهزم معها الأغراض التى ترمى إليها .

وسنستعرض فيما يلى بعض المتغيرات التي تؤثر على الأساليب التى يتبعها الأَبَوان فى معاملة الأبناء ومنها: حجم الأسرة، التوافق الزوجى، التفكك الأسرى، المستوى الاقتصادى الاجتماعى، المستوى التعليمى والثقافى للوالدين، جهل الآباء بأسس المعاملة السوية، نمط تربية الآباء، توقعات الآباء من الأبناء، جنس الطفل، الترتيب الولادى.

١- حجم الأسرة:

إن الأسرة هى الوحدة الاجتماعية التي يُولَدُ فيها الطفل. وتسمى أسرة التوالد، التى تتكوَّن فى كل المجتمعات تقريبًا من أبٍ وأمٍّ وأخوة. وعادة ما يكون لتلك الأسرة أقاربٌ من ناحية الأب ومن ناحية الأم. وقد يعيش أفراد هؤلاء الأسر جميعًا فى مكانٍ واحد.. كما هو الحال عندنا فى كثيرٍ من بقاع الريف. وتقع مسئولية التنشئة الاجتماعية فى مثل هذه الحالة على كاهل أسرة التوالد والأقارب؛ حيث يتم التفاعل بين الطفلِ وعددٍ كبير من أفراد أسرته. غير أننا نلحظ الأن نوعًا من الاستقلال والانفصالية بين أسرة التوالد وأسرة الأقارب. مما يؤدِّى إلى زيادة الرابطة بين الطفل وأبويه.. إلى جانب زيادة سلطتهما عليه.

ويتأثر كلٌّ من: الأبوين والأبناء بحجم الأسرة؛ فإذا كان من إيجابيات الأسرة كبيرة العدد – بالنسبة للأبناء – وجودُ رفقاء لعبٍ دائمًا وهو أمرٌ مهم بالنسبة لهم (وذلك لوجود عددٍ من الأشقاء ذوى الأعمار المتقاربة)، واستفادة بعضهم من بعض فى اكتساب الخبرات، وتكوين الشخصية ونموها.. إلى جانب وجود تعاون وتماسك بين الأشقاء – حيث يرعى الأخوةُ الكبار الأشقاءَ الصغار – وارتفاع الحِسّ بالمسئولية تجاه بعضهم؛ إلا أننا غالبًا ما نلحظ كثرة الاحتكاكات والمشاحنات بينهم, التى يُوقفها عند حدِّها تحكُّم الأب.

غير أن الآباء داخل هذه الأسرة الكبيرة الحجم، غالباً ما يتصفون بالحزم، وكثيرًا ما يلجأون إلى العقاب البدني أو التهديد به مع أسلوب السيطرة في تحقيق المطالب، ويتضاءل بها أسلوب الحماية الزائدة من قِبلهم، فالأمُّ التى لديها عددٌ كبيرٌ من الأطفال تكتسب خبرات تَعرِفُ من خلالها أن كل الأطفال يمرون ببعض الصعاب أو المشاكل، وأن هذا شىءٌ طبيعى ومؤقَّت ولا يدعو للقلق. كما يترتب على كبر حجم الأسرة؛ اتباع أسلوب الإهمال من قِبل الأم لأطفالها فى مرحلة الطفولة المبكرة، وعدم العناية بنظافة الطفل الجسمية والظاهرية.

وعادة ما يكون الطفل الأخير فى الأسرة الكبيرة غير مرغوبٍ فيه، أو ليس موضعَ حُبٍّ كافٍ، بعكس الطفل الأول أو الثانى.

وغالبًا ما يستنكر الأبوان صداقات أبنائهما الخارجية لحاجة المنزل إلى مساعدتهم، أو لعدم وجود نفقات للأنشطة مع الرفاق.. فغالبًا ما تعاني الأسر الكبيرة الحجم ظروفًا اقتصادية ضيقة. إلى جانب ممارسة الأبوين القليل من الضغط من أجل التحصيل الدراسى.

أما فى الأسر المتوسطة الحجم؛ فتتغلب المشاحنات والأحقاد الحادة بين الأشقاء، ويمارس الأبوان ضغوطهما للتحصيل على السابقين بالولادة، كما يميلان لمقارنة تحصيل الصغير بتحصيل أشقائه. وكلما قل حجم الأسرة؛ زاد اهتمام الآباء برعاية أبنائهم وتنشئتهم تنشئة إجتماعية سوية؛ باستخدام أساليب المعاملة الأبوية الإيجابية.

وفى الأسرة الصغيرة الحجم؛ تظهر قدرة الأبوين على تكريس الوقت والانتباه الكافيين لكل صغير، واتباعهما الأسلوب الديمقراطى مع الأبناء . إلا أن قلة عدد الأطفال فى هذه الأسر تؤدي إلى إتباع الأبوين أسلوب الحماية الزائدة مع أطفالهما؛ حيث ينزعجان بشدة بمجرد تعرض الطفل لأى حادث أو مرض مهما يكن بسيطًا، إلى جانب حصول الأطفال فى هذه الأسر على قدرٍ كبير من الحنان والتدليل.

٢- التوافق الزوجى:

إذا كان الزواج هو النظام الاجتماعى الذي يسمح لاثنين بالغين من البشر ينتميان إلى جنسين مختلفين، أن يعيشا معًا ويُكوِّنا أسرةً، وأن يتناسلا ويُنجبا ذريةً يَعترِفُ بها المجتمع ويعتبرها أفراده وعناصره؛ فإن العلاقة بين الزوجين تعتمد إلى حدٍ بعيد على مدى التوافق والانسجام في شتى مظاهر الحياة. وكلما زادت نسبة هذا التوافق والانسجام؛ كانت العلاقة متماسكة خالية من الهزات النفسية والعاطفية. والرابطة الزوجية ليست مجرد رابطة جنسية أو وَحْدة مادية تُحقِّق مصلحة الطرفين.. وإنما فوق ذلك؛ فهى رابطة رُوحية ووَحْدة عاطفية.

وإذا كان الأبوان وما بينهما من توافق يُعَدُّ مصدرًا أساسيًّا فى بنية شخصية الأبناء السوية أو المضطربة، وما يكوِّنانه من أُسرة تُعَدُّ المصدرَ الأساسي فى النمو السوى أو اللاسوي للأطفال؛ فإن الأسرة السوية المستقرة تعمل على إشباع حاجات الصغار بكفاية واتزان، ويشعر صغارُها بالسعادة. أما الأسرة المريضة المضطربة، التى من سماتها الخلافات؛ فتكون مصدرًا لتعاسة أبنائها واضطراب وانحراف سلوكهم.

ومن عوامل التوافق الزوجى:

أ) الخَلْفية الأسرية:

إن شخصية كلٍّ من الزوج والزوجة، قد تتأثر بالخلفية الأسرية؛ خاصة إذا كانت فى أسرة غير سعيدة، وتُمثل نموذجًا سيئًا للزواج. فقد تتوحَّد الشخصية مع هذا النموذج السيئ؛ مما يُولَدُ معه اتجاهٌ سيئ نحو الزواج.

وعملية التنشئة الاجتماعية التى تقوم على أساليب معاملة أبوية غير ملائمة - كالإفراط فى التدليل، والقسوة والإهمال، والتذبذب الشديد، والحرمان، وعدم وجود القدوة الحسنة فى العلاقة بين الأبوين - كفيلة بأن تَخلُق أفرادًا غير ناضجين عاطفيًا، وغير مستعدين لمواجهة المشكلات العادية فى حياتهم، ويتسمون بعدم النضج الانفعالى.. وبالتالى يُواجَهون بالعديد من المشكلات الزوجية بعد زواجهم.

ب- تلاؤم شخصيتىْ الزوجين:

وفى حين يرى البعض أن تقارب ميول الزوجين واهتماماتهما واتجاهاتهما تساعد على تحقيق الانسجام فى الحياة الزوجية - حيث إن هذه الميول والاهتمامات إذا اختلفت؛ فإنَّ كلّ فردٍ منهما ينزع إلى ممارسة الحياة الزوجية، بروح الفرد وليس بروح الفريق - فإن هناك من يرى أنه ليس من المهم أن تكون شخصية الزوجين متشابهة، ولكن المهم هو تفهُّم شخصية القرين من أجل سهولة التعامل معه؛ فقد يكون الزواج القائم بين شخصيتين مختلفتين فى السمات والطباع أنجح من زواج تتطابق فيه سمات الشخصيتين معًا.

وقد بينت نتائج بوشارد "Bouchard" (1999) أن العديد من السمات الشخصية للأزواج ترتبط بتوافقهم الزوجى مع زوجاتهم، مثل: الموضوعية، الحيادية، السلوك السوى المستقيم، القدرة على التعبير الانفعالى، علاوة على التوافق مع الذات والضمير، ومعايشة ظروف الآخرين. بينما كان الإحساس بعدم التفاؤل، والشعور بالتعاسة والبؤس، والإحساس بعدم الثقة، وسرعة الغضب وعدم الاتزان الانفعالى؛ سمةً مميِّزة لغير المتوافقين زوجيًّا؛ خاصة من الإناث.

ج) الموارد الاقتصادية:

قد ينشأ التوتر بين الزوجين، وسوء العلاقة بينهما؛ إلى العمل غير المستقِر أو بَطالة الزوج، أو إلى عمل الزوجة وما يترتب عليه من ضغوط تواجهها أثناء العمل؛ مما يؤثر بدوره على أسلوب معاملتها للأبناء. وقد يكون بسبب قصور الموارد الاقتصادية؛ حيث إن العائد من عمل الأب والأم لا يكفى لسد الحاجات الأساسية للأسرة ؛ مما يضطر الأب إلى البحث عن عملٍ آخر بعد انتهاء العمل الأول. ولهذا العمل الثاني آثارٌ سيئة على الأب والأم وأبنائهما. فغالبًا ما يخرج الأبُ للعمل الصباحى - الذى يستنفد كل طاقاته – ثم يعود إلى منزله بعد العمل المسائى، وربما يكون أبناؤه نائمين.. ومن ثمَّ تتحمل الأمُّ؛ بجانب عملها.. أعباء المنزل والأبناء. وأصبح الزوج لا يشارك فى الأسرة إلا بالجانب الاقتصادى؛ مما يترتب عليه أن تَفتُرَ العلاقات العاطفية للأسرة، وتنشأ المشاكل، وقد يتهدد كيان الأسرة بسبب الحالة الاقتصادية السيئة.

د) الجانب العاطفي والجنسي:

إن العواطف من الأمور المهمة التى تتصل اتصالاً مباشرًا بالتوافق الزوجى؛ فمعظم الأزواج يتحدثون عن الملل والفتور الذى يعترى العلاقة العاطفية التى بين الزوجين. ويحدث ذلك بشكل خاص، إذا كانت الزوجة أو الزوج من النوع "الرومانتيكى"؛ أى ذلك النوع من الناس الذى لا يستطيع أن يعيشَ بدون عاطفة قوية، تصبغ حياته بأكملها.

هـ) صراع الأدوار:

إن عزوف غالبية الأزواج عن تعاونهم مع زوجاتهم فى أعمال البيت - رغم تعاون الزوجة مع زوجها فى الإنفاق على الأسرة - يعود إلى العلاقة غير السوية بين الرجل والمرأة. ويعتمد نجاح العلاقات الأسرية على تساوى الحقوق والواجبات بين الأب والأم في ظل ظروف الحياة العادية، والمساواة بينهما كرجل وامرأة؛ لذلك يجب أن يعرفَ كلُّ طرفٍ من الطرفين حقوقه وواجباته داخل الأسرة. وأن يؤدِّى كلٌّ منهما دورَه داخل الأسرة كما يجب أن يُؤَدَّى.

و) إنجـاب الأبنـاء:

إذا كان من المفترض أن إنجاب طفل يؤدِّى إلى إحكام الرابطة بين الأب والأم؛ إلا أنه فى الزواج التعيس يُصبِحُ الطفلُ نِقْمَةً على أبويه. فإذا كان أحدُهما أو كلاهما يكره الآخر ويسعى لفصم عرى الحياة الزوجية؛ فلن يَحُلَّ لهما مجىء الطفل مشكلتهما، بل سيزيدها تعقيدًا. وقد يُعتبر الطفل مسئولاً - فى نظرهما - عن التعاسة التى يُرغمان على أن يقضيا فيها بقية حياتهما؛ مما ينعكس على معاملتهما لطفلهما، الذى لن يحظى إلا بالتعاسة والشقاء.. من استمرار علاقتهما.

ومن أهم المشكلات التى تواجه الأسرة المصرية وتؤثر على التوافق الزوجى.. هى مشكلات تربية الأبناء؛ حيث إنها ترتبط بطريقٍ غير مباشر بالمشكلات المادية التى تحدث بين الزوجين، نتيجة الضغوط الاقتصادية التى تتعرض لها الأسرة المصرية. كما ترتبط هذه المشكلة بجوانب أخرى فى الحياة الزوجية، ألا وهى اختلاف تفكير وسمات كلٍّ من الزوجين فى تربية الأبناء والعناية بهم، وكذلك مدى تدخل أهل الزوجين فى حياة الأسرة وأسلوبها فى تربية أبنائها.

ولذلك أصبح مقبولاً بشكلٍ واسع القول بأن البيوت المحطمة، التى تعانى من: المشكلات العائلية، والزواج غير المتكافئ؛ تُسبِّب للأطفال انحرافات تنشئة حادة. ومعاناة من: سلس البول، ونوبات الغضب والسلبية ، وصعوبات في التغذية والكلام والجنس وعدم التركيز؛ تتكون نتيجة عدم التوافق بين الأبوين. كما أن ٦٦٪ من هذه الحالات لديها نقصٌ فى الوُدِّ وعدم الاتزان، وعدم القدرة على تعلُّم النظام.

ومن هنا؛ يتبين وبشكل قاطع أن البيئة الاجتماعية للأسرة تؤثِّر على الصحة البدنية والعقلية للطفل، وأن الأطفال الذين ينشأون فى أسرٍ تعانى من الصراعات العائلية والعنف الأسرى؛ يُعانون غالبًا من مشكلات صحية طويلة المدى، بما فيها الأمراض الأكثر شيوعًا فى المجتمع.. كالسرطان، ومرض القلب وضغط الدم، والسكرى، والسمنة، والإحباط، والقلق، وكذلك الموت المبكر.

والأطفال الذين يلاحظون أبويهم يحلون مشكلاتهم من خلال الصراخ والضرب؛ فغالبًا ما لا يتمكنون من تعلم كيفية حل المشكلات التى يستطيع حلَّها الأطفالُ الآخرون، ويكونون أكثر حِدَّة فى مواجهة المشكلات الصغيرة، مما يتسبَّب فى مواجهتهم مشكلات اجتماعية مع الآخرين خارج نطاق المنزل.

كما أن المردود النفسى لتلك العلاقة الزوجية على شخصية الأبناء، قد يستمر لسنوات طويلة؛ فقد يحملها الابن أو الابنة عندما يكوِّنان أسرًا، ويقومان بدورهما كآباء وأمهات.

٣- التفكُّك الأسـرى:

على الرغم من اختلاف الرجل والمرأة؛ فإنهما مثل وجهيى العملة الواحدة. فهما في إطار الأسرة لا انفصال بينهما، ولا فكاك لأحدهما عن الآخر؛ إذ إنهما أصل الوجود الإنساني، أو وجها

الحياة ذاتها. وهما يُحقِّقان النظام الاجتماعى للأسرة الذى يستهدف قيام الآباء بالأدوار الاجتماعية المرجوة التى تهتم بضبط الأطفال وتهذيبهم وتوجيههم وتنميتهم إلى شخصيات لديها كيانٌ بالمجتمع.

والأسرة غير المنظمة أو المفككة، هى التى يتعرَّض بناؤها الاجتماعى، أو وحدتها البنائية للانكسار أو التمزق. وقد يكون التفكك الأسرى طبيعيًّا، نتيجة الفَقْد الطبيعى للآباء، كالذى يحدث فى حالة الوفاة. أو قد يكون تفككًا اجتماعياً، كما فى حالات الطلاق والانفصال أو الهجرة. أو بانحلال البناء الاجتماعى للأسرة، والمتمثل فى : العادات الشخصية السيئة للأزواج، كإدمان المخدرات والسكر، أو المرض العقلى. وقد يكون التفكك نفسيًّا، نتيجة عدم التكامل فى أمزجة الأبوين، والتوترات وصراع الأدوار بينهما، رغم وجودهما الطبيعى بالأسرة.

وفى جميع أشكال التفكك الأسرى لا يستطيع الآباء تحقيق رسالتهم وتأدية أدوارهم تجاه الأبناء. فالوحدة الوثيقة فى أدوار الأب والأم فى زمن الهجرة على سبيل المثال؛ قد أصابها الانفصال. ونتيجة لغياب رب الأسرة؛ فلم يعد الاتصال هو الأصل، وإنما الانفصال المكانى والجغرافى هو العادة. وثمة تقسيمٌ للعمل فى إطار الأسرة قد حدث؛ فالأب يُسافر لتدبير الأموال، وتضطلع الأمُّ بدور الأبِ إلى جانب دورها؛ مما لا يمكنها من القيام بهذه الأدوار مجتمعة.. الأمر الذى يجعل من دورها فى تنشئة الأبناء منقوصة وغير ناجحة.

كما أن غياب الأب الدائم أو المؤقت عن الأسرة يؤثر على أسلوب معاملته لأبنائه؛ فإما أن يُظهْرَ الأبُ عاطفة الحب والحنان، ويحاول تعويض الأبناء بشتى الطرق. وإما أن يُبالغ فى شِدَّته عليهم. وإما أن يُهملَهم ويُصبِح موقفه سلبيًا تجاههم.

ونظرًا أيضًا لغياب الأب الدائم أو المؤقت عن الأسرة (سواء فى حالات الترمل والطلاق والهجر، وهجرة الزوج أو انشغاله الدائم بسبب طبيعة عمله)؛ فعادة ما يلجأ الطرَفُ المقيم مع الأبناء إلى تدليلهم، والإغداق عليهم ماديًّا ومعنويًّا، لتعويض غياب الطرف الآخر. وغالبًا ما يُؤدِّي هذا التدليل، وانغماس الأسرة فى الإنفاق الاستهلاكى الكمالى والتفاخرى.. إلى ظهور فئة من الأبناء لا يعرفون معنى الكَدِّ وبذل الجهد والعرق، والادخار لبناء الأمان الاقتصادى لأسرهم؛ وهو ما يُخِلُّ بالتربية السليمة.

وكل هذه التداعيات إنما هى نتيجة لعدم وجود السلطة الأبوية، وآليات الضبط الأسري المتمثلة فى وجود الأب والأم، فهجرة الآباء سعيًا وراء المال، أو انشغال الأب والأم بالعمل لفترات طويلة خارج المنزل؛ أدى بهما إلى تناسي أدوارهما فى التنشئة الاجتماعية، وتغير أساليب هذه التنشئة ، وسيطرة الحرمان العاطفي والتفسخ والإهمال من قبل الأبوين.

٤- المستوى الاقتصادي والاجتماعى للأسرة:

تتأثر أساليب المعاملة الأبوية سلبًا أو إيجابًا بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى للأسرة، والذى يتحدد من خلال: وضع المنزل، وحالته، مساحته، وعدد غرفه وموقعه، ومحتوياته. وأيضًا من خلال: نسبة عدد الأشخاص فى الغرفة الواحدة. إلى جانب عمل الأبوين، ونسبة دخل الأسرة.

ولانخفاض المستوى الاقتصادى للأسرة أسبابٌ متعددة؛ أهمها: قِلَّة الدخل، أو إصابة عائل الأسرة بأمراض مزمنة، أو سوء التصرف فى دخل الأسرة.

ويمكن تعريف الطبقة الاجتماعية، بأنها مجموعة من الأفراد يشغلون أوضاعًا متشابهة في مجالات الهيبة والاعتبار. وعادة ما يُؤخَذ الوضع المهنى كمرشدٍ للطبقة التي ينتمي إليها الفرد، ويمكن تصنيف هذه الأوضاع إلى أربع طبقات:

١. الطبقة الدُّنيا، وينتمى إليها العمالُ غير المهرة.
٢. الطبقة العاملة، وتتشكَّل من العمالِ المهرة ونصف المهرة.
٣. الطبقة المتوسطة، وينتمى إليها الموظفون والمهنيون.
٤. طبقة الصفوة، وهى تختلف عن الطبقة المتوسطة من حيث الثروة والانتماء العائلى.

أ- الطبقة العليا "Upper class":

تنتمي إلى هذه الطبقة الأسر ذات الأصول العريقة، التى لها عادات وتقاليد خاصة بها تعود إلى أجيال عديدة. ويتم التركيز فيها على الأسرة الممتدة، التى هى إما: أبوية أو أمومية.

والعديد من هذه الأسر تؤمن بأهمية التربية المنزلية أكثر من التربية أو التعليم المدرسى، وإذا كان لابد من الذهاب إلى المدرسة؛ فلابد وأن تكون المدرسة راقية والجامعة راقية، كالطب أو إدارة الأعمال أو الحقوق، وتتمتع أسر هذه الطبقة بالثراء.

ونتيجة لهذا الثراء يتبع الأبوان فى هذه الأسر أسلوب التدليل مع الأبناء؛ فيوفِّران كل ما يحتاج إليه الأبناء دون معاناة أو كَدٍّ. وهذا ما يُسبِّب لهم الزهد فى كثير من متع الحياة التى يستطيبها

غيرُهم ويستفيدون بها، ويصبح لذيذ الأشياء ومُرُّها عندهم سواء. وهذا بدوره ربما يتسبب لهم فى معاناة نفسية؛ تؤدى بهم إلى انحرافٍ سلوكى.

ب- الطبقة المتوسطة "Middle class":

تكتسب أسر هذه الطبقة مكانتها من خلال إنجازهم فى التعليم. فهو ذو قيمة وأهمية أُوْلَى ورئيسية فى هذه الأسر؛ فمنه يستمدون مكانتهم ومركزهم وأهميتهم.

ومن مبادئ هذه الطبقة: "ليس من المهم مَنْ تكون، ولكن من المهم ماذا تكون". ويتم التركيز فى هذه الطبقة على الأسرة النووية. وعادة تشمل الطبقة المتوسطة – المرتفعة، رجال الأعمال والمختصين، بينما تُشكِّل الطبقة المتوسطة - المنخفضة، أصحاب المهن والمشروعات الصغيرة وأصحاب المهن الحرفية والفلاحين.

ونجد أن الضغوط الاقتصادية التى تعانى منها أغلب الأسر التى تنتمى لهذه الطبقة - نتيجة غلاء الأسعار، وعدم تناسب الدخول مع متطلبات الحياة – تدفع الأب إلى التفكير المستمر فى محاولة موازنة أمورها المالية، وتقسيم وقتَه ما بين العمل والنوم لاستكمال مرحلة الشقاء من جديد فى صباح اليوم التالى. وتدفع تلك الضغوط الأم أيضًا للانشغال فى العمل نهارًا، وأعمال المنزل والواجبات المدرسية للأبناء بقية اليوم. و يؤدى انغماس كلٍّ من: الأب والأم فى عملهما؛ أن يفقدا متعة الإقدام على الحياة، واستبدال قيم الصمود والاستبسال والكفاح بها؛ لتوفير المتطلبات الضرورية لحياة الأبناء. ويتكوَّن نتيجة لذلك؛ الشعور بالإحباط والغضب، والانخفاض العام فى الرُّوح المعنوية للأسرة، التى تؤثر بدورها على أساليب معاملة الآباء للأبناء.

فعندما ينشغل الآباء بمهام معينة يؤدِّونها يكونون أقلَّ تجاوبًا مع أطفالهم، وأقلَّ حديثًا ومساعدة لهم. كما أنهم يكونون أكثر تدخلاً فى شئونهم، وأكثر نقدًا وتسلطًا معهم.

فى حين يرى البعض أن الأبوين من أبناء الطبقة المتوسطة – المرتفعة، عادة ما يستخدمان أساليب الإثابة والتقبل والحب. وتطلب الأمهات - فى هذه الطبقة - من الآباء اتباع أسلوب التشجيع مع أطفالهم؛ خاصة الذكور. ولا يشغل أسلوب التسلط والتشدد لديهم سوى مكانة ثانوية. ونادرًا ما يستخدم الأبوان هنا أسلوب العقاب البدنى. كما أنهما لا يعاقبان أطفالهما بما ينتج عن سلوكهم؛ بل بالدوافع التى أدت إلى تلك النتائج. وهذا قد يؤدى بالأب إلى مناقشة أبنائه مناقشة عقلية ليصل منها إلى معرفة دوافع سلوكهم. ويتخذ الأبُ قراراته فى ضوء تلك المناقشة؛ لذلك يكثر الحوار بين آباء والأبناء من تلك الطبقة.

ج- الطبقة المنخفضة المستوى "Lower class":

إن الآباء والأمهات الذين ينتمون للمستويات الاجتماعية والاقتصادية الدُّنيا؛ يلجأون إلى العقاب البدنى فى تنشئتهم الاجتماعية لأطفالهم؛ خاصة إذا أدى سلوك الأطفال إلى إتلاف بعض الأشياء. كما أنهم يُقدِّرون الاحترام والطاعة والتأدب، ويفضلون اكتساب أبنائهم هذه القيم. ويهتم هؤلاء الآباء بالنتائج المباشرة لسلوك أبنائهم، أكثر من اهتمامهم بالدوافع التى تكْمُن وراء هذا

السلوك. ولكى يُحقِّق هؤلاء الآباء هذه الأهداف؛ فإنهم يتبعون أسلوب التشدد والحزم ووضع القيود مع أطفالهم الصغار.

والأطفال فى هذه الطبقة؛ لابد أن يتدربوا على التكيف على الأحوال من حولهم، وعلى التعامل مع كافة الظروف بأنواعها، وتحمُّل المسئولية داخل الأسرة والمنزل؛ حيث لا تحتوى تربيتهم على تطلعات لمستقبل. فهم يشعرون بالدِّنو فى كل شىء لديهم: فى التعليم، الوظيفة، المسكن، والدخل؛ لأنهم يفتقرون إلى الموارد، وعادة ما يُصابون بالأمراض.. ولذلك فهم متشائمون دائمًا، وقلمَّا يُحرزون نجاحًا فى حياتهم.

د- الطبقة الدُّنيا "Under class":

هى طبقة جديدة ظهرت فى الآونة الأخيرة فى المجتمع؛ تتكوَّن من الأسر التى تَعولُها نساء للحصول على قوت يومها. ومن مدمنى الخمر والكحوليات والمخدِّرات الذين بلا مأوى ويعيشون فى الشوارع. كما تتكوَّن من المسنين والأبناء غير الشرعيين الذين يعيشون فى الشوارع وليس لهم مأوى.

وتُعاني هذه الطبقة من الفقر المدقع الشديد، وتظل على حالها دون تغيير أو حتى أمل في التغيير. ويتورط أفرادها في المخدرات، والجريمة. والأسوأ أن أطفال هذه الطبقة يكونون عُرْضَةً أيضًا لإدمان المخدرات، والانتهاك الجنسى؛ ومن ثمَّ الإصابة بالأيدز.. وذلك يرجع إلى أنهم يعيشون فى أماكن سيئة وغير ملائمة، ولا يتوافر لهم تعليم أو رعاية صحية.

وغالبًا ما يقذف الأبوان - من هذه الطبقة - بأبنائهما مبكرًا إلى سوق العمل، متبعين في ذلك أسلوب الاستقلال؛ بالتخلصُ من مسئولية الطفل وتعويده على الحصول على غذائه. كما يتسبب الفقر فى قسوة الأبوين واتجاههما نحو معاقبة أطفالهما بشكلٍ غير مقبول، والتناقض في تربيتهم.

ويترتب على الحياة القاسية الناتجة عن الفقر وشظف العيش؛ إحساس هؤلاء الأبناء بالحرمان.. مما يترتب عليه وجود جميع أنواع الحقد والكراهية والعُزلة الاجتماعية.

ومن هنا نجد أن كل طبقة من الطبقات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة تستخدم أساليب فى المعاملة تختلف عن الأخرى.

دار الكتب والوثائق القومية

٥- المستوى التعليمي والثقافي للأبوين:

يُعَدُّ المستوى التعليمى والثقافى للأسرة، أحد العوامل المؤثرة في أساليب معاملة الآباء لأبنائهم. فالأسرة التى تتمتع بمستوى تعليمى وثقافى جيد تؤثر فى طرق تربية الأبناء، وفى مدى إدراكهم لحاجاتهم وطرق تحقيق تلك الاحتياجات.. وبالتالي على أساليب المعاملة التى يتبعها

الأبوان، ومدى تأثيرهما على شخصيات أبنائهما ومدى تفهمهما للمشاكل والمراحل المختلفة التى يمر بها الأبناء.

فكلما زاد الوعى الثقافى، لجأ الآباء لاتباع أسلوب الديمقراطية، والمناقشة في الأمور الدنيوية والاجتماعية. بينما يلجأ الآباء ذوو الوعى الثقافى المنخفض لأسلوب الشدة والضرب أحيانًا. إلى جانب غلبة الأسلوب التسلطى وإلقاء الأوامر والنواهى واللوم والتحقير، مع انعدام الحوار والتواصل. وأمام غياب الحوار داخل الأسرة، وأساليب التشجيع والثواب؛ يلجأ الطفل إلى الجنوح كبديلٍ عن الحوار الحقيقى؛ حيث يتميز سلوك أبناء المحرومين ثقافيًّا بسيادة اللغة الحركية فى التعامل مع العالم ومع الآخرين، وسرعة إفلاس الحوار الذى يتحول إلى اشتباكٍ بالأيدى، مرورًا بالشتائم والمهاترات، والتوقف عند حدود المحسوس نتيجة اتباع الأبوين أساليب المعاملة السلبية اعتقادًا منهم أنها الأساليب الصحيحة فى التربية.

وإذا كان المستوى التعليمى والثقافى للأبوين يؤثر على مدى رعايتهما ومتابعتهما لأطفالهما؛ حيث يكونان أكثر اهتمامًا وحرصًا على السؤال عن أحوال الأبناء الدراسية، وتوجيههم من دون أن يبخلوا عليهم بالمساعدة والتشجيع المستمر. فيعطونهم بذلك صورة للأبوين المثاليين قولاً وعملاً. ويُنمِّيان فى أبنائهما الرغبة الدائمة فى التفوق، لأنهما يعلمان ويعرفان يقين المعرفة أن أساليب الرفض والتشدد، تُعيق كل نمو سليم، وكل حافز للنشاط والتقدم.

وارتفاع المستوى التعليمى للأبوين كان أيضًا من ضمن العوامل التي أسهمت في ابتعاد الأبِ إلى حد ما عن مجال الإشراف أو الاشتراك مع الأمِّ فى تربية الأطفال؛ نتيجة اقتناعه بالنجاح أو التوفيق الذي سيصاحب تربية أطفاله.. إذا ما تُركت الحرية لزوجة متعلمة مثقفة واعية دون تدخلٍ منه، أو إسراف فى تأكيد ذاته كرجل.

فالأمُّ التى أخذت حقَّها فى التعليم؛ تُؤثِّرُ إمكاناتُها الثقافية والتعليمية فى أسلوب تعاملها مع أطفالها وإدارة بيتها كوظيفة أساسية حدَّدها المجتمع. كما تؤثِّرُ فى إيجاد العلاقات الاجتماعية السليمة بين أفراد الأسرة بصفة عامة، مما يجنبهم الوقوع فى مشكلات نفسية كثيرة .

وهو ما يعنى أن للثقافة والتعليم دورًا مؤثِّرًا فى الرعاية والتوجيه، وفى التسامح مع الأبناء. وأن قِلَّة المستوى التعليمى للآباء والأمهات لا يساعد على درجة التسامح مع الأبناء؛ مما يولِّد الصراع الأسرى. وأن الآباء الذين يكونون أكثر تعرضًا لتأثير المدنية الحديثة؛ يكونون أكثر تسامحًا فى معاملة أبنائهم وبناتهم، وأن هذا يولد فيهم اتجاهًا تحرريًّا. بينما يبقى الآباء الذين لم يتعرضوا كثيرًا للمدنية الحديثة محافظين على عاداتهم وتقاليدهم وطرق تفكيرهم القديمة، مما يؤدى لاتباعهم أساليب التشدد.

٦- جهل الآباء بأسس المعاملة السليمة:

يظن كثيرٌ من الآباء والأمهات فى أنفسهم الفهم والدراسة والخبرة، بما يُغنيهم عن القراءة والسؤال حول الأساليب الصحيحة لمعاملة أبنائهم. ويعتبر هؤلاء ما قدمه المختصون فى هذا الصدد - فى مجالات التربية وعلم النفس - مجرد لغو لا يُقدِّم ولا يؤخِّر! والمؤلم أن هؤلاء الآباء والأمهات لن يدفعوا ثمن هذا الفهم الخاطئ من أشخاصهم؛ بل إن الضحية هم الأبناء.

إن جهل كثيرٍ من الآباء والأمهات بصفة عامة بمطالب النمو، وإشباع حاجات الطفولة، وعدم معرفتهم بصفة خاصة بأساليب المعاملة الأبوية السليمة؛ يوقعهم - من غير قصدٍ - فى كثيرٍ من الأخطاء التى تؤثِّر على صحة أطفالهم الجسمية والنفسية؛ مما يتسبب فى إصابتهم بالأمراض، أو سوء توافقهم ومعاناتهم من كثير من مشاكل السلوك التى تُلازمهم طوال حياتهم. كما يؤدِّى جهل الأبوين أيضًا إلى ضياع الأبناء تعليميًّا، فكريًّا، ومهنيًّا، إلى جانب ضياع أوقاتهم، وعدم فهم ما حولهم، وضعف رؤيتهم لمستقبلهم بوضوح. وكثيرًا ما يتبرَّمُ الآباء من جُرأة أبناء الجيل الحاضر، ومن ألفاظهم التى يستخدمونها؛ بل ومن وقاحة كثيرين منهم!! لكن قلمَّا يسعى هؤلاء الآباء إلى فهم كل ذلك، ناهيك عن تغييره بأساليب صحيحة. إلى جانب أن القدوة الصالحة قد لا تتحقق فى بعض الآباء أصلاً، وقد تكون تربية الأولاد مقصورة على إطعامهم وتوفير مسكن لهم، دون إتباع أساليب المعاملة السليمة. فالحبُّ مثلاً بدون العلم، كثيرًا ما يكون ذا أثرٍ خطير فى تكوين شخصية الطفل؛ إذ قد يبالغ الأبوان فى حبِّهما للطفل إلى حد الإسراف فى تدليله. وبذلك ينشأ أنانيًا، ضعيف الثقة بالنفس. غير أن جهل الآباء لا يظهر فى تدليل الطفل والتغاضى عن أخطائه فحسب؛ بل يظهر

أيضًا في سوء التصرف مع الأطفال الذى يبلغ حد الإهمال أو النبذ أو القسوة الشديدة في بعض الأحيان، بدعوى أن ذلك يجعل منهم رجالاً أقوياء، وأمهاتٍ شديدات فى المستقبل! ويعتقد كثيرٌ من الآباء أن تحقيق ذلك يتم بتحويل المنزل إلى ثُكْنَة عسكرية من حيث الضبط والربط، وتنفيذ الأوامر، ويتحول الأب إلى قائدٍ لتلك الثُّكْنَة، والأبناء إلى جنودٍ بها!! وهذا من أشد الأساليب تدميرًا، ومن أكثر أسباب فساد العلاقة بين الأب وأبنائه وافتقادهم الحميمية الأبوية، التى هى مصدر اقتداء الأبناء والتأثير فيهم.

غير أن هناك من يرى أن الآباء والأمهات اليوم، أَصبحوا مهتمين - إلى حدٍ بعيد - بأساليب تنشئة أو معاملة أبنائهم، وما إذا كانت الطريقة التى يتبعونها هى الملائمة أو لا؟ وقد زاد من حِدَّة هذا الاهتمام، عدم الاستقرار فى ممارسة الأبوين لأدوارهما تجاه أبنائهما. هذا فضلاً عمّا تُقدمه وسائل الإعلام من تأكيدٍ مستمر على ضرورة الاهتمام برعاية الأبناء، إلى الحد الذى قد يُؤدِّى إلى قلق الأبوين أحيانًا من هذه الناحية.

٧- نمط تربية الآبـاء:

إن الأسلوب الذى عُومِل به كلٌّ من: الأب والأم فى أسرتيهما يُؤثِّرُ على علاقتيهما بأطفالهما سلبًا أو إيجابًا. فالآباء ينطلقون فى تربية أبنائهم من تَعلُّمٍ سابق، عندما كانوا أبناءً! فقد يأتى الأبُ أو الأمُّ من بيئةٍ تسودُها إما: قسوة أو تساهُلٌ مُفْرِط، أو تحرر أو صدق فى الحديث.. الأمر الذى يترك أثرًا لا محالة على الخبرات التربوية للآباء مع أطفالهم. مما قد يجعلهم يتبعون الطريقة نفسها التى سبق لآبائهم أن اتبعوها معهم، أو قد يتبعون عكسها. أى أن هناك احتمالاً أن يُحقِّق الآباء فى أبنائهم ما مُنعوا هم عنه، وهناك أيضًا احتمالٌ آخر بأن يمنعوا عنهم ما سبق أن مُنعوا هم عنه!

وإذا ما اتبع الآباءُ الطريقة نفسها التى سبق أن عُومِلوا بها في صغرهم؛ فمعنى هذا أن التنشئة تُعيد نفسَها بنفسِها. ويُصبح كلُّ أبٍ - هو نفسَه - نتيجةً لتربيته، التى هى أيضًا نتيجةٌ لتربية سابقة! فالتربية سلسلة من دون نهاية، تُعطي أحيانًا نتائج مأساوية، وأحيانًا إيجابية.

ويرى بعض علماء النفس التربويين أن الطفل يُمثِّلُ انعكاسًا لسلوك الأب وأسلوب معاملته. وقالوا قولتهم الشهيرة: "أرنى طفلك أولاً أقل لك من أنتَ". والمثل الشعبى الشائع يقول: "من شابَه أباه فما ظلم". فالأبُ الذي يُسيطر على ابنه – فى طفولته - سيطرةً تامة؛ لا بد أن يكونَ هو نفسَه قد نشأ فى أسرةٍ مستبدة، فصار يُعامِل ابنَه كما كان أبواه يعاملانه. أما الأبُ الذى يتقبَّل الطفلَ ويرغبُ فيه؛ فيكون على العموم قد نشأ فى بيتٍ يسوده الحب والعطف والمعاملة الحسنة.

وكذلك؛ فالأب الذى سبق لأبويه أن استخدما معه أسلوب التذبذب وهو طِفلٌ؛ يسمح لأولاده بسلوك وتصرفات معينة.. ثم فى مراتٍ أخرى يُعاقبهم ويؤنِّبهم ويمنعهم عما سبق أن سمح لهم به من قبل دون مبررات!! وهو مع أبنائه يُفضِّلُ جنسًا على جنس، وغالبًا ما يكون هذا التفضيل فى جانب الجنس الذى كان يمنحه الحب والحنان فى طفولته (الأب أو الأم)، ثم هو على النقيض من ذلك مع أبنائه من ذات الجنس الذى كان قد حرمه من الحب والحنان!!

كما تؤثِّر أيضًا نشأة الأم تحت أسلوب التفرقة فى المعاملة على أساس الجنس وتفضيل أخيها الذكر عليها، على أسلوب معاملتها لأولادها فى المستقبل. فهى لن تتمكَّنَ من تنشئة أبنائها فى مناخٍ مملوء بالصحة النفسية، التى سبق لها أن حُرِمت منها. كما يؤثِّرُ شعورُها بالدونية - الناتج عن أسلوب التفرقة - على مكانتها فى المجتمع؛ فتميل إلى الانعزالية، أو إلى الاتجاهات السلبية نحو الجنس الآخر. وهذا من شأنه إفساد حياتها الزوجية مستقبلاً.

وعلى جانب آخر؛ فقد يتَّبِعُ الآباءُ عكس ما عُوملوا به من أساليب سلبية فى صغرهم، فيجنِّبوا أبناءهم كل السلبيات والمتاعب التى سبق لهم أن عانوا منها فى طفولتهم. وبُذلك تُعطَي للآباء الفرصة لتصحيح ما ارتكبه آباؤهم من أخطاء أثناء تعاملهم معهم.

٨- توقعات الآباء من الأبناء:

إن قلوبنا تتمنَّى وتَحْلُم، ولكنَّ الواقعَ فى بعض الأحيان يختلف. وبدايةً؛ فقد يَحْلُم الأبُ أو الأمُّ بإنجاب ولد أو بنت. أو بأن يكون طفلُهما جميلاً أو موهوبًا. أو بأن يُصبح عالمًا، أو له مكانة. أو لاعبًا رياضيًّا أو بطلاً... ونحن نعلم أن كلَّ أبٍ (أو أمٍّ) يُخفِى فى أعماقه صورةً سرية لما يرجو أن يكون عليها طفله فى المستقبل. ومهما يحاول أن يكون معقولاً أو منطقيًا؛ فإن هناك توقعًا ما يتمناه. وقد يختلف هذا التوقع من إنسانٍ لآخر؛ إلا أنه موجود، ويتمنى كلٌّ منا أن يتحققَ حُلْمُه وأن يأتىَ طفلُه مطابقًا للصورة السرية التى يحتفظ له بها فى أعماقه.

لكن ما يجب على الأهل معرفته أن لكلِّ طفلٍ تفرُّدِه ونمطِه الخاص؛ لذا فلا بد من انتقاء الأبوين لما هو مناسب لكل فردٍ من أبنائهما، وتوجيهه بحسب ما يتلاءم مع ميوله ورغباته، وليس بما يتلاءم مع رغبات الأهل أو وَفْق إرادتهم.

ومطلوبٌ من الآباء ألا يَروْا فى أبنائهم وسيلةً لتحقيق ما فشلوا هم فى تحقيقه. فقد تُؤدى مبالغة بعض الآباء فى اعتبار أطفالهم بمثابة آمالٍ تعويضية؛ لتحقيق ما فشلوا هم فى تحقيقه فى حياتهم.. إلى زيادة توتر الطفل نتيجة زيادة الضغط عليه؛ فينشأ بمشاعر عدم الآمان، بل قد يُصبح فاشلاً، عازفًا عن استكمال دراسته.

إن كثيرًا من الآباء لا يضعون فى اعتبارهم قُدرات أبنائهم، حينما يتطلعون إلى إشباع طموحاتهم - التى لن تتحقَّق فى حياتهم - من خلال هؤلاء الأبناء. فجميع الآباء تقريباً يقيسون نجاح أبنائهم وما يُحرزونه من تقدم وفق معيارٍ مثالى ما.

فحينما كان الابن صغيرًا؛ كان مطامح أبويه تتركز عمومًا حول تنمية السلوك الاستقلالى فيه. وعندما يدخل المدرسة؛ ينظر إليه الأبوان على أنه أصبح مستقلاً، ويستطيع العناية بملابسه وأدواته المدرسية، وأنه يَقْدِرُ على تحمُّل وأداء واجباته المدرسية، وأنه أصبح أكثر التزامًا فى أنشطته المختلفة. وهنا قد يَسلُك الطفل وَفْقًا لرغبات أبويه، وقد يتناقض سلوكه مع توقعاتهما.

وإذا ما كَبُر الابنُ يدخل ضمن مطامع الآباء نجاحه الدراسى والاجتماعى والرياضى. بل ويدفعهم الحرص على نجاح أبنائهم فى الدراسة وما بعدها - وتطلعهم لمستوى أفضل لحياتهم

وحياة أبنائهم - إلى التدخل والتحكم فى اختيار نوع الدراسة، والعمل الذى يشغله الأبناء بعد التخرج. وهذا يرجع إلى توقع الأبوين الكثير من أبنائهما دون تقدير لمستوياتهم وقدراتهم وميولهم الدراسية. وهو ما يؤدي لإثارة شعور الأبناء بالقلق والتوتر، ومعاناتهم من مشكلات نظامية فى المدرسة شبيهة بالمشكلات التى يُثيرها الأطفال الذين لا يلاقون اهتمامًا؛ بل إهمالاً من الأبوين.

وقبيل رشد الابن يتطلع أبواه لنجاحه الاقتصادى (المالى)، والأُسرى (الزواجى). والابنُ واعٍ تمامًا بما يتوقعه منه أبواه. وحين لا يرقى لمستوى تطلعاتهما وتوقعاتهما؛ فإنه يشعر بعدم الكفاية، ويُصبح مشاكسًا غير مطيع، وغير مسئول، وفى حالة استياء. وكنتيجة لمثل هذه الاتجاهات؛ فكثيرًا ما يَقِلُّ اجتهادُه الدراسى، أو ينخرط فى التخيلات وأحلام اليقظة.

فالآباء الذين يتعجلون نمو أطفالهم، ويرون فيهم أشخاصًا كبارًا قبل الأوان، ويحملونهم المسئوليات بما لا يتفق وأعمارهم؛ إنما يُسيئون إلى هؤلاء الأطفال عن طريق حرمانهم من سعادة الطفولة، ومن فرص النمو التدريجى السليم. فلكلِّ مرحلةٍ من مراحل النمو أعراضٌ جسمية، وخصائص نفسية وعقلية تنعكس جميعها فى سلوكه وتفاعله مع أفراد الأسرة.

٩- جنس الطفل:

غالبًا ما يتحكم جنس الطفل فى أسلوب معاملة أبويه له. فالطفلة (الأنثى) فى كثير من بلدان العالم النامى، ومن بينها مصر والدول العربية؛ تُوضَع فى مركز أدبى أقل من مركز الطفل الذكر، وتتمتع بأقلِّ مما يتمتع به الولد من حقوق وفرص ومزايا. فإذا ما قامت الابنة مثلاً باللعب بعروستها فى أسرة تُحِبُّ الذكور، وجاء أخوها وأخذها منها؛ تقول لها الأم: "سيبى اخوكِ يلعب بها شوية".. لكن عندما تأخذ البنت لعبة أخيها؛ تقول لها الأم: "هو انتِ مش لكِ لعبتك.. مالك ومال لِعَب اخوكِ"!

وعندما يَكْبُر الأبناء؛ فإن الولد يُسمح له بمقابلة أصدقائه فى المنزل، فى حين لا يُسمح للبنت بذلك. كما يُعطَى الولَدُ مصروفًا أكثر من البنت. لذلك فإنه غالبًا ما يكون أسلوب التبعية والتحكم هو أسلوب المعاملة الأبوية المُتَّبع مع البنت؛ فهى لا تتعود منذ الصغر على القيادة أو المسئولية واتخاذ القرارات، ولا يكون لها رأى فى مختلف أمور الحياة. كما تُمنع الابنةُ من ممارسة الألعاب الرياضية حفاظًا على أنوثتها، وتُمنع من الرقص في المناسبات الاجتماعية وفى المدارس، باعتباره سلوكًا مخالِفًا للآداب العامة.

بينما يُعامل الابنُ الذكر بأسلوب الاستقلال، حتى إن الأسرة المصرية وهى تُعاقِب صغارَها؛ تُميِّز بين الابن والابنة؛ سواء من حيث سبب العقاب، أو من حيث جسامة العقاب وتكراره. فالابنة تلازم أمَّها فى المنزل؛ فتفجر فيها الأمُّ كلّ إرهاقِها وآلامها الدفينة، الناتجة عن مشاكلها الأسرية والخاصة. لكِنَّ الأمَّ المصرية لا تقسو على ابنها الذكر؛ سواء لإعجابها الدفين برجولته المبكرة، أو لأنها تخشى فراره منها إن هى قست عليه. فى حين تتوقَّع الطاعة من الابنة والتفانى، وإنكار الذات.

ويميل الأبُ إلى أن يكون أكثر عقابًا وأقل مكافأة مع النوع نفسه. وهناك أدلة بحثية على أن الأبوين يشجعان الفتيات لأن يَكُنَّ أكثر اعتمادية وعاطفية، وميلاً للمشاعر من الأولاد. وعندما يَكبُر الأولاد الذكور يُصبحون أكثر حريةً واستقلالية عن الفتيات.

وتتحدَّد معاملة الأبوين لأطفالهما، بمدى رغبتهما فى طفلٍ من جنس معين. فقد يرغبان فى ولدٍ؛ فيُنجبان بنتًا، والعكس. وكم رأينا أزواجًا ينفرون من بيت الزوجية لمجرد أن الزوجة قد أنجبت بنتًا، بينما كانوا يرغبون فى طفل ذكر! ولعل الكثيرات من الإناث قد عانين من معاملة الآباء لهن ولأمهاتهن، ولسببٍ لا يد لأحد فيه!

١٠- الترتيب الولادي:

من بين العوامل التى تؤثِّر فى أساليب المعاملة الأبوية للأبناء.. وبالتالى على شخصياتهم بصفة عامة؛ ترتيب الطفل بالنسبة لإخوته.

كأن يكون هو الطفل الأول أو الثانى أو الطفل الأخير، أو أن يكون هو الطفل الذكر بين عددٍ من الأخوات، أو تكون الطفلة هى الأنثى الوحيدة بين عددٍ من الأولاد. كما قد تتأثر العلاقات بين الطفل وإخوته، وبينه وبين أبويه بالفارق الزمنى بين عمر الطفل وأعمار إخوته وأخواته. وبما قد يحدث أحيانًا من وفيات بين الأخوة؛ كأن يأتى الطفل بعد عدة وفيات، أو تأتى بعده عدة وفيات.

كلُّ هذه الحالات يترتب عليها علاقات معينة وذات طابع خاص بين جميع الأفراد الموجودين فى المجال الحياتى للطفل؛ سواء تَعلَّق الأمرُ بإخوته أو أخواته أو بأبويه. ودون أن يشعر الأبوان؛ فإنهما يتأثران فى تعاملهما مع الطفل بالمركز الذى يحتله داخل الأسرة. بل إن هذا التأثير قد يكون واضحًا وحاسمًا فى بعض الحالات الخاصة؛ كحالة الطفل الذى يأتى بعد وفاة عددٍ من إخوته، أو حالة الطفل الوحيد.

أ- الطفل الأول:

على الرغم من أن كثيرًا من الأسر فى مجتمعاتنا تفضل أن يكون الطفل البكر ذكرًا؛ فإن الطفل الأول – ذكرًا كان أم أنثى – يظل يحتل مكانةً خاصة بالنسبة لمن يأتى بعده من الأطفال؛ حيث يحظى باهتمامٍ خاصٍ من طرف أبويه، ويُعامَل بأساليب: الحب والتقبل، والتدليل، والحماية الزائدة التى تَحول دون احتكاك الطفل بالعالم الخارجى احتكاكًا يُساعده على تكوين خبرات وتجارب خاصة به مختلفة عن خبرات وتجارب الكبار. كما يقلل هذا الأسلوب فرصة استعداده للاستقلال عن أبويه؛ مما يجعل الطفل ضعيف الثقة بنفسه، واتكاليًّا وغير قادرٍ على مواجهة الصعاب. فالأبوان فى تدليلهما له يستجيبان لجميع مطالبه، وينفذان جميع رغباته؛ مما يجعله يعتبر هذه المطالب وتلك الرغبات حقوقًا لا بد من تحقيقها.. في حين لا تكون هناك صورة حقيقية وواضحة عن واجباته؛ سواء إزاء نفسه، أو إزاء إخوته أو أسرته، أو باقى المحيطين به.

وعندما يجىء الطفل الثانى؛ يتحول اهتمام الأبوين عن الطفل الأول، ويتغير أسلوب معاملتهما له، ويُصبحان أكثر نقدًا وعقابًا، وأقل عطفًا وحنانًا، وأشد حزمًا في معاملتهما له. فيميل هذا الطفل إلى الاعتقاد - فى أغلب الأحيان - بأنه قد قُضِى عليه بالضياع والإحباط لصالح أخيه الأصغر منه؛ فيبدو الأبوان - فى نظره - وكأنهما أكثر مبالغة وأشد قسوة، بحجة أنه يجب أن يكون مثالاً طيبًا لإخوته".

ب- الطفل الثانى: وعندما يأتى الطفل الثانى يكون الأبوان قد اكتسبا الكثيرَ من الخبرات؛ نتيجة السنوات التى قضياها فى تنشئة الطفل الأول؛ لذا تتسم تصرفاتهما إزاء الطفل الثانى بثقةٍ أكثر، وبقلقٍ أقل مما كان عليه الأمر بالنسبة للطفل الأول.

لكن يجب ألا تصل تلك الثقة إلى درجة إهمال الطفل الثانى. والموقف المطلوب من الآباءُ الالتزام به في هذه الحالة؛ هو: الاعتدال، وعدم التفرقة فى التعامل مع الطفل الأول أو الثانى، وتشجيع الطفلين على التعاون والتضامن. وألا يتدخلا فى حياتهما بطريقة تُشعر أحدهما بالغَبْن، أو بأنه غير مقبول أو غير محبوب من طرف أبويه. ومن الطبيعى أن يكون هناك اختلافٌ بين الطفلين، من حيث القدرات العقلية، أو من حيث الشكل والخبرات.. وعلى الآباء أن يكونوا حذرين وواعين، بحيث لا تدفعهما هذه الاختلافات إلى التمييز بين الأبناء والمقارنة بينهما بحضورهما، وحتى لو كان أحدُهما ذكرًا والأخرى أنثى، أو ذكيًا والآخر أقل ذكاءً. ويجب أن يُدرك الأبوان أنه إذا كان الطفل الثانى أصلب عودًا، وأكثر ثقةً بنفسه؛ فما ذلك إلا لأنه أُتيحت له فرص أكثر للاعتماد على نفسه، نتيجة قلة تدخل الأبوين فى سلوكه واتباعِهما أسلوب الاستقلال فى التعامل معه.

ج- الطفل الوحيد:

ينشأ الطفلُ الوحيد فى ظروف مادية واجتماعية غالبًا تتميز بالسهولة واليسر. وثمة مميزات عدة يتمتع بها هذا الطفل، ويَغفل عنها بعض الآباء؛ ومنها: الشخصية القيادية، بالإضافة إلى إمكانية الضبط الذاتى.. وهذا ناتج عن الوقت الكافى الذى يُمنح له فى التربية. وأيضًا إذا ما كان الأبوان يتَّبعان معه الأساليب الصحيحة فى التعامل دون مبالغة أو تفريط، إلا أن هذا الطفل الوحيد قد يُصبح مشكلة. وتَكمُن هذه المشكلة فى سلوك الأبوين نحوه. فهما يُحيطانه بعناية تزيد كثيراً على العناية التي يحتاج إليها طفلٌ فى عمره؛ سواء من الناحية السلوكية أو التربوية أو الصحية. فعلى سبيل المثال: يُبالغ الأبوان فى حثِّ ابنِهما الوحيد على استهلاك الأدوية كتعبيرٍ عن حرصهما على صحته، أو أن يحاول الأبوان أن يُحقِّقا من خلال هذه العناية ما لم يُحققاه في حياتهما؛ كأن يُرهقاه بالدرس ليكون متفوقًا على أقرانه وزملائه، رغم أن إمكاناته العقلية والجسدية لا تسمح له بذلك؛ مما يجعله يتظاهر بالمرض، كمحاولة لاستعادة ما يتمتع به من اهتمام. كما أنهما يُدللانه، ويستجيبان لكل طلباته، ويحققان له كل رغباته؛ مما يجعله فى الغالب أنانيًّا يعرف حقوقَه أكثر من معرفته بواجباته، وغير قادرٍ على التعامل السليم مع الآخرين تعاملاً قائمًا على العلاقات المتبادلة والأخذ والعطاء. ونتيجةً لجو الدلال المُفْرط الذى يُحاط به الطفلُ الأول؛ فإنه ينشأُ خجولاً، ضعيف الثقة بنفسه، وأَميل إلى الاتكال على الآخرين، وغير قادرٍ على الاستقلال عنهم، ولا يستطيع مواجهة متاعب الحياة عند الكِبَر، ويكون قلقًا بطبعه ويتعجل الأمور.

د- الطفل الأخير:

ويأتى الطفلُ الأخير، ليشعرَ بأنه أقل قوةً، وأقل قدرةً على التمتع بالحرية والثقة.. ممِّن هم أكبر منه. فالوالدان عادةً ما يُعامِلانه على أنه طفلٌ لمدة أطول من المدة التي عُومِل فيها إخوته الذين جاءوا قبله؛ فيظل هذا الطفل صغيرًا فى نظر أبويه، حتى بعد تخرجه فى الجامعة! ويُصِرُّ

الأبوان على تفضيله على إخوته، ويظلان يُقدِّمان له الامتيازات التى كان يتمتَّع بها وهو صغير إلى أن يَكْبُر. ولذلك؛ فهو ينشأ مُدلَّلاً، شاعرًا بنقصه. وقد يترتب على هذا؛ إما تعويضٌ ناجح لهذا الشعور بالنقص، أو تعويض غير ناجح.

دار الكتب والوثائق القومية